التراث العربي الإسلامي في دائرة اهتمام المستشرقين

أ.د. بركات محمد مراد

أستاذ الفلسفة الإسلامية

قسم الفلسفة والاجتماع

كلية التربية - جامعة عين شمس

التراث العربي الإسلامي في دائرة اهتمام المستشرقين

بادئ ذي بدء يجب ألا نعتقد أن "بناء الاستشراق هو بناء يقوم كلية على الأكاذيب والخرافات ، والأوهام والأساطير والتخيلات التي لا ترتكز على وقائع قوية محسوسة وملموسة" كما يعتقد البعض وأقل ما يقال عن الاستشراق أنه علاقة واضحة لها دلالتها ومغزاها من حيث أنه يعبر بشكل قوي عن السيطرة الحقيقية التي يتمتع بها الغرب على الشرق.

وهذا نفسه انعكاس لواقع لا يمكن الشك أو التشكيك فيه ، وليس من شك في أن أي موضوع للبحث والدراسة يستطيع البقاء والصمود منذ كتب "أرنست رينان" Ernest Renan في الاربعينات من القرن التاسع عشر حتى الآن ، وان يجذب إليه اهتمام كل هذا العدد الوفير من العلماء من إنجلترا وفرنسا وبقية أنحاء أوربا ، وبخاصة ألمانيا وإيطاليا ، وأن ينتقل بعد ذلك إلي أمريكا لابد أن يكون شيئا أكثر من مجرد أكاذيب واختلاقات من صنع الخيال ، وان المادة الوفيرة التي جُمعت خلال هذه الفترة لابد أن تكون ذخيرة وغذاء لأجيال متعاقبة كثيرة من الباحثين والدراسين .

ولذلك يقول الباحث الكبير الدكتور أحمد أبو زيد في دراسته عن الاستشراق(١) ": ولا يعني هذا أن الاستشراق برئ تماما من الكذب والاختلاق والتوهم التي ينبع بعضها من الجهل والبعض الآخر عن الاستعلاء . ولكن من العسف أيضا أن ننكر على الكثيرين من الكتاب ما بذلوه من جهد صادق ومن وقت ومال ، وإن كانت هذه الجهود كلها تنبع أساسا من فكرة القوة والسيطرة التي كان الغرب يتميز بها على الشرق ، والتي مكنته من إخضاع الشرق لحكمه وأحكامه".

إضاءة : لقد كانت الظروف والأوضاع الثقافية العامة السائدة في الغرب في العصر الحديث تتطلب قيام هذا الفرع من المعرفة . فليس الاستشراق إذن مجرد موضوع سياسي ، كما أنه ليس مجرد مجموعة ضخمة من النصوص المتعلقة بالشرق ، او أنه مجرد تعبير عن خطة أو مؤامرة غربية استعمارية تهدف إلي وضع الشرق في مكان أدنى وأقل من الغرب ، وإنما هو مزيج من الإدراك السياسي والتعبير عنه جماليا وفنيا وعلميا وسياسيا واجتماعيا وأنثروبولوجيا ولغويا ، ووسيلة لابراز الاهتمامات العديدة المتباينة والمتضاربة التي تكشف في آخر الأمر عن التعارض بل والتناقض بين الشرق والغرب ، رغم ما يختفي وراء هذا التناقض من تكامل.

لاشك أن الإدانة المطلقة للاستشراق انطلاقا من مقولة كل معرفة سلطة ، وأن معرفة أوربا بالشرق عبر الاستشراق ، قادت إلي السيطرة عليه قول ينطوي على تعميم مخل . صحيح كانت هناك كتابات تحمل أفكارا عدوانية عن الشرق وتتسم بروح التعالي ونبرة التفوق العنصري والثقافي ، وبعضها ذو دوافع استعمارية . لكن يصعب على المرء الاتفاق مع "إدوارد سعيد"(٢) أن كل ما قام به المستشرقون من حفريات وفك رموز الحضارات واللغات القديمة وتحقيق للمخطوطات التاريخية مثلا مجرد تشويه لتلك اللغات والحضارات ؟ وأن تلك الجهود الجبارة والمخاطر العظيمة بحيواتهم لا يعدو ان يكون الدافع من ورائها خدمة المطامع الاستعمارية والتوسع الإمبريالي ؟!

لكن إذا كان إدوارد سعيد يفترض أن الاستشراق نشأ لخدمة المطامع الاستعمارية لأوربا ، وذلك استنادا لنظرية المعرفة . السلطة ، فإن الكثيرين يخالفونه الرأي ويرون ان الاستشراق وليد النزعة الإنسية (الهيوماتيزم) التي سادت في عصر النهضة الأوربية.

فقد ظهر الاهتمام بدراسة الحضارات الشرقية في إطار البحث عن الإنسان الكوني والإرث الإنساني المشترك باعتبار أن الحضارات الإنسانية مكملة لبعضها بعضا .كما يقول المستشرق الماركسي "ماكسيم رودنسون" . وكمثال على هذه النزعة الإنسية تأتي الإشارة إلي أعمال كبار الرومانسيين

(١)

أمثال غوته وفيكتور هيجو الذي كتب بمقدمة ديوانه(الشرقيات) الذي افتتحه بثلاثة أبيات للشاعر الفارسي سعدي قائلا :"لم تحرز الدراسات الشرقية مثل التقدم الذي أحرزته اليوم .. فقد كان الناس في عهد لويس الرابع عشر هيليين ، وأما اليوم فقد أصبحوا شرقيين"(٣).

تأكيدا لذلك ، يقول المستشرق الإيطالي "فرانسيسكو غابرييلي" ، في رده على المفكر أنور عبد الملك (٤) إن الاستشراق ساعد على استكشاف للحضارات الشرقية القديمة وساهم هذا الاستكشاف في بيان حجم مساهمة الحضارات في التاريخ العام للبشرية وقيمة هذه المساهمة ، صحيح أن هذا الاستكشاف كان قد ساعد أوربا أحيانا على تغلغلها الاقتصادي والسياسي في الشرق الحديث من أجل استعباده واستغلاله.

وهذا شيء لا يمكن لعالم منصف إنكاره ، ولكن من العدل والإنصاف أيضا ألا نعمم هذه الحالات والأحداث الخاصة ، ونشمل بإدانتنا كل البحث الاستشراقي . فهذه الإدانة قائمة على خلط الأمور والمغالطة. صحيح أنه وجد بعض المستشرقين كعملاء لهذا الاستعمار وكأدوات له : نذكر منهم القناصلة والسفراء والتجار والمبشرين والعسكريين والتقنيين. ولكن عددا لا بأس به من كبار المستشرقين عرفوا كيف يميزون بين اهتماماتهم العلمية وبين الأهداف والغايات السياسية لبلدانهم ، بل وقفوا ضد هذه الأهداف في بعض الأحيان.

ومن أبرز الدلائل التي يستدل بها نقاد إدوارد سعيد على قصور الفرضية التي ينطلق منها في ربط الاستشراق بالاستعمار استنادا إلي علاقة المعرفة بالسلطة ، الإسهام الضخم للاستشراق الألماني ، فألمانيا لم تكن قوة استعمارية مهيمنة مثل إنجلترا وفرنسا حتى يقال إن الاستشراق الألماني كان لخدمة أهدافها الاستعمارية وتوسعها الإمبريالي.

وكذلك كان موقف الاستشراق الروسي من العرب وأدبهم وتراثهم القديم والحديث ، ويعد المستشرق "أغافانفيل كريمسكي" المولود بأوكرانيا عام ١٨٧١م من أوائل المستشرقين الذن جعلوا من دراسة تاريخ الشرق جزءا مكونا في دراسة التاريخ العالمي . ويقول "كراتشكوفسكي عن مخطوطة كريمسكي" في كتابه"تاريخ الاستعراب الروسي" :" أنه مخطوط فريد في شموله ، لا نجد ما يماثله لا في دراستنا ولا في الدراسات الغربية، وهو يكتسب أهمية استثنائية بفضل استخدامه أرشيف الكاتب الشخصي ومختلف المواد المأخوذة من مذكرات معاصري الحركة الأدبية بدءا من أواسط القرن التاسع عشر" .

ويقول عنه"أنس خالدوف" في تقديمه للكتاب حين طبع:" مازال كتاب كريمسكي إلي يومنا هذا واحدا من أغنى الكتب التي درست عصر النهضة العربية بالوقائع ، ومن أكثرها موضوعية في تحليل أحداث النهضة وأسبابها". وقد صدر الكتاب عن معهد الاستشراق في أكاديمية العلوم السوفياتية عام١٩٧١م ، أي بعد مضي ما يقرب من ثلاثين عاما على وفاة الكاتب(٥).

ويتتبع كريمسكي في دراسته للأدب في الشرق العربي من نهاية القرن الثامن عشر إلي مطلع العشرين الوقائع ، ويقدم عرضه في إطار اجتماعي تاريخي ، وهو يكتب بسهولة وحيوية وكأنه يتحاور مع القارئ ، معززا حديثه بمقبوسات كثير من الأعمال الأدبية المدروسة ، وعرض لمضموناتها ، وذكر لتفاصيل دقيقة عن حياة العرب الثقافية في القرن التاسع عشر ، وحياة الأدباء ويلجأ الباحث في كثير من المواضع في كتابه إلي تقديم وصف فني للأحداث والشخصيات والأساليب والمؤلفات ، الأمر الذي يخلق انطباعا بأن الكاتب يسعى عمدا إلي تشويق القارئ لمتابعة القراءة وإلي أن تكون المعلومات التي في الكتاب مفهومة لدائرة واسعة من القراء غير المتخصصين .

أما المصادر التي اعتمدها كريمسكي في تأليف كتابه فيقسمها الباحث "فؤاد مرعي(٦) إلي أربعة فئات: المصادر الأساسية وهي المؤلفات الأدبية العربية الحديثة والصحف والمجلات العربية ، وقد كان الكاتب على اطلاع كبير جدا بالأدب العربي الحديث. وكذلك شهادات معاصري الأحداث من

المراقبين الأوربيين والرحالة والمستشرقين التي انعكست في مؤلفاتهم أو في ما نشروه في الصحافة وقد شغلت الدراسات الاستشراقية الروسية مكانا بارزا ولاسيما دراسات المستشرق الروسي الكبير "إي. يو. كراتشكوفسكي"(١٨٨٣ . ١٩٥١) ، كما أن الدراسات الهامة لـ "م. هارتمان" ، و"هـ . أ. جب" ، و"غ .كا فبفمبير"، و"بروان" وغيرهم كانت موضع اهتمام كبير لدى الباحث .

هذا فضلا عن كتابات الدارسين العرب أمثال جورجي زيدان ، ولويس شيخو ، ويوسف سركيس، وف . كرزي ، وكذلك ما أضاء هذه الكتابات من خلال الملاحظات الشخصية للمؤلف الذي تجول في البلدان العربية في أواخر القرن التاسع عشر ، حيث قرأ الكثير ، وشاهد الكثير ، ودون الكثير من الملاحظات ، والتقى بالكثير من الأدباء والمفكرين وحاورهم.

ولا ننسى أن كراتشكوفكسي قد وضع منهجا لدراسة تاريخ العرب وآدابهم، وكان أول من ترجم معاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية من اللغة العربية مباشرة ترجمة علمية دقيقة . كما ترك ٤٥٠ بحثا ومقالة نشرت في مؤلفاته الكاملة ، ودرس أشعار المتنبئ وأبي العتاهية والبحتري وصنف أعمالهم في الغزل والهجاء والحماسة . كما درس الرواية التاريخية العربية.

ونشرت تحت إشراف هذا المستشرق المتعمق لأعمال التراث العربي والإسلامي الطبعة الأكاديمية لحكايات ألف ليلة وليلة. وقد نشر كثيرا من دراساته في تحقيق عديد من المخطوطات في خزائن أكاديمية العلوم الروسية في سانت بطرسبرج ، كما ترأس الجمعية الجغرافية الروسية ومعهد الاستشراق في موسكو.

وقد تحدثت المستشرقة الروسية يافعة يوسفنا ، أستاذ اللغة العربية وآدابها بجامعة سانت بطرسبرج ، عن نشأت الاستشراق الروسي الذي بدأ في التبلور بشكل واضح في القرن التاسع عشر ، عبر مجموعة كبيرة من الباحثين والمؤرخين والشعراء وكتاب الرحلات إلى الأراضي المقدسة . يضاف إلى ذلك أن تجارة روسيا مع مصر وبلاد الشام وأرجاء واسعة من السلطنة العثمانية كانت مزدهرة ، خاصة مع القدس ودمشق وحلب وأزمير والآستانة وغيرها.

ومن هنا لا يكون غريبا أن نجد باحثة في مقال لها عن "الإستشراق الروسي على ضفاف النيل"(٧) تؤكد أنه كانت رحلات الشعراء الأوربيين وكتاباتهم الرومامنسية عن سحر الشرق ، خاصة الفرنسيين منهم ، وفي طليعتهم الشاعر الفرنسي الكبير لامرتين ، تلقى صدى إيجابيا محببا في نفوس شعراء روسيا وكتابهم الذين أقبلوا على دراسة اللغة العربية وآدابها وتاريخها وتراثها.

وبدأ اهتمام الروس بالتراث العربي والإسلامي يتزايد بشكل ملحوظ بعد ترجمة عدد من المصادر الأساسية في هذا المجال إلى اللغة الروسية ، وما لبث الاهتمام الثقافي الفردي أن تحول إلى علم استشراق متميز يسعى الباحثون فيه إلى معرفة أحوال الشرق العربي ، والقيام بزيارات إليه لتدوين مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والفنية هناك.

أما المستشرق "فلاديمير بولندين" أستاذ الأدب العربي بجامعة سانت بطرسبرج ، فيؤكد أن الاستشراق الروسي ينظر إلى الثقافة العربية نظرة موضوعية من منطلق المعرفة الإنسانية ، ولم يمارس الوصاية عليها كالاستشراق الغربي . ولم يقتصر دور الاستشراق الروسي على الانفتاح بوعي على الحضارات الشرقية وفي مقدمتها الحضارة العربية الإسلامية إنما تعدى الأمر ذلك إلى الدفاع عن هذه الحضارة ضد محاولات تشويهها واستشهد بمقولة المستشرق الروسي "ف ..ف.بارتولد": "إن الحضارة العربية الإسلامية ظاهرة تاريخية ، وليست من البساطة بمكان بحيث يمكن تناولها في بحث أو مقالة"

(٣)

ولم يكن المفكر الروسي "كريمسكي" هو الوحيد الذي اهتم بالدراسات العربية والتاريخية ، وكان يسعى إلي الموضوعية والحياد في هذه الدراسات ، فقد كان هناك كثير من المستشرقين ممن اهتموا بالدراسات التاريخية فيما بين الحربين ، وقد شمل ذلك ، الاهتمام بالشخصيات والأحداث والنظم السياسية والاقتصادية والتشريعية للعالم العربي.

ومن الجدير بالذكر أن أول ما يلمس في كل آثار المستشرقين (أكاديميين أو سياسيين أو أدباء أو رحالة مغامرين) قناعتهم العميقة الراسخة بأن عملهم علمي بكل ما تحمله عبارة العلم في الغرب من دلالة الدقة والصحة. ورغم إقرار البعض بأنهم يلجون مجالات جديدة ستكشف لهم ، إن عاجلا أو آجلا ، البقية الباقية من الطلاسم المجهولة التي عجز المدروسون (أي منتجو الحضارة ذاتها) عن فهمها(٨).

ومن المستشرقين الذين أسهموا إسهاما رائدا في مجال الدراسات الأدبية واللغوية والمعجمية العربية ، ولهم بصماتهم الكبيرة والمرجعية المستشرق الألماني "كارل بركلمان" صاحب كتاب"تاريخ الأدب العربي" بأجزائه الخمسة ، والمرجع الذي لا غنى عنه للباحثين في هذا التخصص العام في الفكر والأدب العربي

، وله أيضا"تاريخ الشعوب الإسلامية" الذي صدر عام ١٩٣٩م باللغة الألمانية فكان أول كتاب أصبح مرجعا لا يستغنى عنه باحث في تأريخه لأية مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي ، وقد تُرجم هذا الكتاب إلي عدد من اللغات العالمية . ولبروكلمان عددا كبيرا من المؤلفات والتراجم وتحقيق المخطوطات في المجال الأدبي وقواعد اللغة العربية فضلا عن إسهامه الكبير في دائرة المعارف الإسلامية ، خاصة في الدراسات التاريخية والأدبية.

كما ان هناك المستشرق الإنجليزي "هاملتون جب" الذي نال شهرة واسعة ، وكان أحد المتخصصين في اللغات السامية ومنها العربية، وكان أستاذا للغة العربية بجامعة لندن. وتميزت كتاباته بتعدد موضوعاتها ، وله عددا كبيرا من الأبحاث والمؤلفات في اللغة العربية والأدب العربي ، وكثير من التراجم الإسلامية .

رؤية : ومن الملاحظ أن معظم اهتمامات المستشرقين الأولى أنصبت على الأدب العربي واللغة العربية ، وكان اهتمامهم بالدرس اللغوي عند العرب راجعا لكونه حلقة وسطى بين النظام اليوناني في الغرب والنظام الهندي في الشرق ، يؤدي البحث عنها وكشفها إلي بيان العلاقة بين هذه المدارس المختلفة ، وكذلك أهمية النحو العربي في تعلم اللغة ، بالإضافة إلي القيمة الكبرى للدراسات اللغوية العربية ، لأنها جزء مهم في منظومة العلوم الإسلامية ، وقد عدها المستشرق "فايس" على قدر كبير من الأهمية لمن أراد أن يقوّم الحضارة الإسلامية ، بل ذهب هذا المستشرق إلي أبعد من ذلك ، فنوه بأهميتها التي تتجاوز دورها الكبير في تاريخ الدرس اللغوي بعامة ، وإلي مكانتها في دراسة تاريخ الفكر الإنساني على الإطلاق(٩).

ومن الجدير بالذكر أن المستشرقين الألمان رسموا صورة بهية ومشرقة للعرب في أعمالهم وإسهاماتهم في سبيل خدمة تراث العرب وحضارة العرب والإسلام . فقد أعجبوا بالعرب وبصفاتهم وآدابهم وآثارهم الدينية والثقافية وبحياتهم وقيمهم وتقاليدهم واعتزازهم بكرامتهم وكبرائهم. ولذلك يقول المستشرق "هردر" Herder (١٧٤٤- ١٨٠٣م) في كتابه Ideen "أفكار" عن اللغة العربية :" يرى العرب في لغتهم أعز ميراث يملكونه ، وفي هذه اللغة الثرية الجميلة تكونت علوم وفنون شعرية وفلسفية عميقة". ثم يشيد بعلو همة العرب وبنفوذ كلمتهم وقوة فكرهم ، ويمتدح شعر العرب فيقول:" لا يوجد شعب شجع الشعر وارتقى به كما فعل العرب".

أما جوته Goehte (١٧٤٩- ١٨٣٢م) فقد أعلن صراحة عن حبه لهم ، ولهذا كان صديقا للعرب في وقت كان العداء ضد العرب مستشريا ، وأعجب جوته بالإسلام ، والعرب بالنسبة إلي جوته "أمة تبني مجدها على تراث موروث وتتمسك بعادات تعارفت عليها منذ القدم" . وشغف جوته بأصالة

قريحة العرب وتذوقهم للغة وقدرتهم على التصور والتخيل. وافتتن جوته بسمات تميز بها العرب كالنزوع إلي الحرية والفروسية والبسالة ، والقدرة على صياغة الحكمة بالعبارة الموجزة . وكان يقول "تجد عند العرب كنوزا رائعة في المعلقات ، وأن العرب يولدون شعراء وينشأون كذلك ".

وتأتي في طليعة المستشرقين المعاصرين الدكتورة زيغريد هونكة الألمانية التي قدمت صورة مشرقة للعرب ، وذلك من خلال كتابها المشهور "شمس الله تشرق على الغرب"وبسبب حبها للعرب بذلت وقتها كله وجهدها للدفاع عن قضاياهم والوقوف إلي جانبهم ، وتناولت في كتابها فضل العرب على الحضارة الغربية بخاصة والإنسانية بعامة . وبينت أثر ثقافة العرب وحضارتهم وشعرهم ولغتهم على الفكر العالمي والحضارات الأخرى (١٠).

ولا ننسى اعتراف المستشرقين المحدثين بفضل المؤرخين العرب القدامى ، خاصة في الدراسات التاريخية الهامة التي قاموا بها ، فثمة مستشرقون غربيون قد حملوا ويحملون هذه المهمة ، نذكر منهم المؤرخ الروسي"بارتولد Bartold " المتوفى عام١٩٣٠م في مصنفه الضخم "تركستان من الفتح العربي إلي الغزو المغولي" ، والألماني كارل بروكلمان C.Brockelman الذي تعرض للعلاقة بين تاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير .

والسويسري "آدم ميتز A.Mitz المتوفى عام ١٩١٧م في كتابه عن الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، والذي نقله إلي العربية الدكتور محمد أبو ريدة عام١٩٤٧م ، وكان من جملة مصادره التاريخية مخطوطات ربت على الأربعين موجودة في مكتبات في برلين وباريس وليدن وليبزج وفينيا ولندن .

والمؤرخ الفرنسي المعاصر "أندريه ريمون" الذي شغل منصب مدير المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق في دراسته عن تاريخ القاهرة العثمانية ، والتي نقلها إلي العربية الدكتور زهير الشايب ، وكان من جملة مراجعه بالإضافة إلي المصادر الرئيسية (مؤلفات المقريزي ، وأحمد شلبي ، والقباني ، والدمرداش ، والجبرتي وعلى مبارك) بالاضافة إلي الوثائق المتناثرة والمكدسة بلا تنظيم والمبعثرة بين دار الكتب ودار المحفوظات العمومية ودار الوثائق القومية والمحكمة الشرعية بالقاهرة باذلا في ذلك جهدا مضنيا(١١).

وقد أشاد "بارتولد " بالمؤرخ الإسلامي ابن الأثير المتوفى عام ٦٣٠هـ ونوه بامتيازه بأمانة علمية كبرى ومهارة في النقد نادرة بالنسبة لعصره ، وأضاف كارل بروكلمان أن ابن الأثير قد عالج روايات الطبري بتفهم عميق ، وأضاف إليها زيادات مهمة بصورة تجعل الاعتماد على مادته التاريخية منهجا صحيحا. وكمثال على صحة ذلك أن ابن الأثير هو المؤرخ الوحيد الذي قدم رواية مفصّلة عن معركة "نهر تالاسي "Talas River إلى الشمال الشرقي من سمرقند التي جرت بين العرب والصينيين عام ١٣٠هـ/ ٧٥١م والتي حسمت مصير تركستان حسما نهائيا لمصلحة الإسلام ، وقد وجدت هذه الرواية أيضا التأييد الكامل في المصادر التاريخية الصينية.

ولذلك يقول المستشرق "رودي بارت" ـ وهو في هذا صادق جزئيا . فكثير من المستشرقين الآخرين لا يلتزمون بتلك الرؤية الموضوعية :" .. فنحن معشر المستشرقين ، عندما نقوم اليوم بدراسات في العلوم

العربية والعلوم الإسلامية لا نقوم بها قط لكي نبرهن على ضعة العالم العربي الإسلامي ، بل على العكس ، نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذي يمثله الإسلام ومظاهره المختلفة ، والذي

عبّر عنه الأدب العربي كتابة ، ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهنه دون أن تعمل فيه النظر، بل نقيم وزنا فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي أو يبدو وكأنه يثبت أمامه ، ونحن في هذا نطبق على الإسلام وتاريخه ، وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها المعيار نفسه الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن"(١٢).

جهود علمية ضخمة : ولا شك أن ظهور شخصية المستشرق "سلفستر دي ساسي Silvester de Sasy (١٧٥٨ـ ١٨٣٨م) في فرنسا يعد بداية حقيقية لظهور الدراسات العلمية المنظمة في مجال الاستشراق حول الأدب العربي والنزعة الموضوعية الحديثة في الاستشراق مدينة لساسي بشخصيته التي أحبت العربية وتعمقت درسها ، وبمدرسته التي انتهى إليها عشرات الرواد في مجال الاستشراق من مختلف البلاد الأوربية وبنزعته التي جعلت الاستشراق يتحرر من المرجعية الدينية ، يقول إدوارد سعيد:

" وقد نبعت شرعية معرفة الاستشراق خلال القرن التاسع عشر لا من السلطة الدينية ، كما كانت الحال قبل عصر التنوير ، بل ما يمكن أن نسميه الاقتباس الترميمي للسلطة المرجعية السابقة ، فبدأ من ساسي كان موقف المستشرق المثقف موقف عالم يمسح سلسلة من الشذرات النفسية التي يقوم فيها بعد بتحريرها وترتيبها كما يفعل مرسم لتخطيطات أولية إذ يضع سلسلة منها معا لينتج الصورة التراكمية التي تمثلها التخطيطات ضمنيا"(١٣).

إن هذا المنهج الذي ثبتت به المدرسة الفرنسية من خلال ساسي المنهج العلمي للاستشراق ، ثبتته جميع أنحاء أوربا من خلال تلاميذ ساس الكثيرين الذين كانوا يتوافدون على باريس للتعلم على يد هذا العالم الجليل ، في المدرسة الأهلية التابعة للمكتبة الوطنية ، وبفضل جهوده درست في هذه المدرسة العربية والتركية والفارسية كلون من طموح الثورة الفرنسية الشابة إلي اكتشاف العالم والشرق خاصة ، وعلى يد ساسي في هذه المدرسة تعلم معظم المترجمين الذين رافقوا نابليون في حملته على مصر ، وفيها أيضا تخرج على يديه كبار المستشرقين ممن يعددهم "جوستاف ديجا" في كتابه عن"تاريخ الاستشراق الأوربي من القرن الثاني عشر إلي القرن التاسع عشر"(١٤).

وهناك " هولنبوي" السويدي الأصل الذي تعلم علي يد ساسي عام ١٨٢١م واهتم بعد ذلك بالدراسات اللغوية المقارنة في اللغات السامية . وهناك"رينو" الذي نشر "درة الغواص للحريري" وكتب مقدمة علمية ضافية لها . وهناك " برسينير" الذي تعلم على يد ساسي وواصل البحث والكتابة حول العربية في الجزائر .

وهناك"فليشر" الألماني الذي تتلمذ على يد ساسي في باريس بدءا من عام ١٨٢٤م وعاصر هناك بعثة رفاعة الطهطاوي الذي كانت بينه وبين ساسي مواقف علمية دالة ، وأفاد فليشر بتوجيهات أستاذه من المكتبة الملكية الغنية بالمخطوطات الشرقية في باريس ، وساهمت دراسات فليشر وتحليلاته دون شك

في تقدم البحث كثيرا في مجال الدراسات العربية . وتخرج أيضا على يد ساسي "شامبليون" ـ مكتشف حجر رشيد" ومن ورائه أسرار الحضارة الفرعونية بأكملها ، وإن دور شامبليون الخلاق في التاريخ الحضاري للشرق لا يمكن إنكاره .

لقد شهد القرن التاسع عشر والعشرون دراسات كثيرة وجادة للمستشرقين ، وإذا كان بعضها قد أثار وما زال يثير الكثير من الجدل وشاب بعضها الآخر نوازع العنصرية أو أطلب منها روائح الأهداف القديمة مما جعل البعض يصدف عن هذه الدراسات في مجملها ، فإن الكثير منها اتسم بالموضوعية وبالجهد العلمي المنظم وبالمناخ الذي يبعث على الأعجاب من قدرة العلماء على المثابرة على هدفهم وافناء العمر في سبيله .

(٦)

ولا يستطيع المرء أن يمنع نفسه من الاعجاب عندما يعلم أن واحد مثل المستشرق الألماني "تيودور نولدكة "(١٨٣٦. ١٩٣٠م) قد خلف حول الدراسات العربية والشرقية أربعة وعشرين كتابا ونحو سبعمائة بحث وانه ظل محافظا على عقلانيته وتجرده في مواجهة من يهتم بهم ويختلف معهم في الانتماء ، وأن تلميذه "كارل بركلمان" (١٨٦٨ـ ١٩٥٦م) قد عكف على تاريخ الأدب العربي الحديث بدءا من أواخر القرن التاسع عشر ، ويجمع كل هذا في كتابه الضخم القيم"تاريخ الأدب العربي" ويتابعه بملاحق يصدرها حتى عام ١٩٤٢م موفرا بذلك وحده جهود عشرات الباحثين وفاتحا الطريق امام مئات الموضوعات للبحث والاستقصاء.

ولا يقل في إثارة الاعجاب عن واحد من المستشرقين الأسبان مثل "آسين بلاسيوس" الذي ترك بدوره نحو مائتين وخمسة وأربعين كتابا وبحثا حول الفكر العربي عالج فيها موضوعات متعددة مثل الفلسفة والتصوف والتاريخ والدين والأدب ، وأضاء جوانب كثيرة من علاقة الأدب العربي بالفكر العالمي(١٥).

وُعرف عن المستشرقين أثناء تلك العقود قيامهم ببعثات علمية لبعض البلدان العربية والإسلامية للاطلاع على الآثار وتقصي بعض المعلومات ، وكانت أول بعثة ألمانية برئاسة "كارل رانيتس" عالم الآثار المشهور ، وهيرمان فون فيتزمان ، عالم الجغرافية ، ثم تبعهما المستشرق الألماني "آبتز" ، وخلال الأعوام الخمسة التي قضتها البعثة في اليمن من عام١٩٢٧ . ١٩٣١م قامت بالتحريات الجغرافية والجيولوجية ودراسة النباتات الطبيعية ، وبمساعدة من إمام اليمن بدأت الحفريات الأولى في معرض السبأيين ، بعد استكمال الدراسات الأولية.

ومن المستشرقين الذين اهتموا بالآثار العربية وكشف مكوناتها التاريخية والحضارية في إسبانيا ، المستشرق الإسباني "بلباس فييولدو توريس" الذي كان مشرفا على علم الآثار في مجلة الأندلس ، ومن بين أبحاثه في هذا الجانب "العمارة الإسلامية في المغرب" ، و"الحمراء منذ قرن" ، و"آثار غرناطة" ، و"الحمامات الإسلامية في جبل طارق" ، و"الآثار العربية في غرناطة" ، و"جولات أثرية خلال إسبانيا الإسلامية" ، و " الفن الإسلامي الإسباني" ، و" التأثير الفني للإسلام في إسبانيا " وعشرات من الأبحاث والمقالات الأثرية والتراثية الأخرى.

وكانت للمستشرق "جورج مارسه" بصمة واضحة في الكتابة عن تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وآثارها المشرقة ، وقد عين عام ١٩١٩م أستاذا للآثار الإسلامية في كلية الآداب بالجزائر ومديرا لمعهد الدراسات الشرقية بالجامعة نفسها. ومن آثاره "تارخ العرب في بلاد البربر" و"قبة جامع القيروان الكبير" ، و" فن الجمال الإسلامي" ، و "الفن الإسلامي في إسبانيا"، و" تلمسان مدينة الفن والتاريخ "، و" جوامع القاهرة "، و" مسألة الصور في الفن الإسلامي"، و" ضريح سيدي عقبة" ، و" مداخل الجوامع في الشرق والغرب "، والكثير من الأبحاث والدراسات التاريخية والفنية والأثرية(١٦).

ولا ننسى إعجاب المستشرقين بالفنون الإسلامية في المغرب العربي في القرن التاسع عشر ، وقد زار الجزائر خلال القرن التاسع عشر نخبة من كبار المستشرقين والرسامين الغربيين الذين أبهروا بثراء البيئة الاجتماعية والطابع الإسلامي وترك العديد منهم لوحات وأعمالا فنية تعبر عن انجذابهم إلي سحر هذه البيئة وعمقها وأصالتها وثراء تراثها ، وقد بلغ التأثير ببعضهم إلي حد التمسك بالإقامة الدائمة في الجزائر لتدريس الفن الانطباعي (التأثيري) في مدرسة الفنون الجميلة بالعاصمة.

وقد ذهب الفنان الفرنسي الشهير"إيتان دينيه" في تأثره بهذا التراث الثري إلي حد أنه أشهر إسلامه في عام١٩١٣م وسمى نفسه (ناصر الدين) ، ومات عقب أدائه لفريضة الحج عام١٩٢٩م ، ودفن في مدينة بوسعادة الجزائرية بعد أن أقام عدة معارض فنية بالجزائر وباريس ، وأبرز من خلالها عمق التراث الإسلامي وأبعاده الحضارية والإنسانية ، ورسم فيها معظم معالم مدينة الجزائر سواء

البشر أو الشجر أو الحجر ، ويحتوي متحف المستشرقين . تحت التأسيس . في الدوحة على العديد من هذه اللوحات ، ضمن المجموعة الخاصة للشيخ حسن بن محمد آل ثاني (١٧).

وعامة يؤكد لنا المشتشرق "ريموند شواب"Raymond Scumonp في كتابه"النهضة الشرقية" La Renaissance Orientale (١٨) والذي يبين فيه أنه بالإضافة إلي القدرة الهائلة من الدراسة والبحوث التي قام بها المستشرقون خلال هذه الفترة ، فإن حُمى الاهتمام بالشرق والانشغال لشئونه وحياته وثقافته لمست كل شاعر وكاتب مقال وفيلسوف ومفكر وفنان ، بحيث ظهرت بعض الملامح الشرقية في تفكير وكتابات جميع المتخصصين والهواة والمتحمسين لكل ما هو شرقي .. وعلى أي حال فإن هؤلاء المستشرقين كانوا ينقسمون إلي فئتين كبيرتين ، الأولى فئة العلماء المتخصصين في الدراسات الإسلامية أو الصينية أو الأندوأوربية . والثانية هي فئة الكتاب والفلاسفة والشعراء الفنانين المتحمسين للشرق ، أو الذين استخدموا إبداعهم الفني في تناول بعض نواحي الحياة الشرقية كما هو حال فيكتورهوجو في Les Orientales أو جوته Goethe في ديوانه المشهور ، وإن كانت هناك فئة ثالثة تجمع بين الاتجاهين ، ويدخل في هذه الفئة مستشرقون من أمثال بيرتون وادوارد وليام لين ، وفردريس شليجل Friedrich Schlegel .

ويؤكد الباحث الكبير أحمد أبو زيد(١٩) في دراسته السابقة عن الاستشراق "أنه من العسف والإجحاف ان نصف كل هؤلاء المستشرقين بأنهم في دراساتهم وكتاباتهم وفي اتخاذهم الشرق موضوعا لتخصصهم يصدرون عن الشعور بالاستعلاء ، وهو الرأي الذي يتردد بكثرة في كتابة إدوارد سعيد ، كما نجده

متضمنا في بعض الكتابات الأخرى التي تصدر عن أقلام شرقية في مجال تأريخها لحركة الاستشراق والمستشرقين ونقد كتاباتهم".

ويرجع الباحث سبب ذلك بقوله" وربما يكون مرد هذا الرأي ليس موقف التعالي من جانب المستشرقين بقدر ما هو الشعور بالنقص والعجز من جانب الشرقيين أنفسهم ، وعدم القدرة . لأسباب قد تكون خارجة عن إرادتهم . عن مجارات حركة الاستشراق في حجم المجهود الذي بذل ، والعمل الذي تم إنجازه على أيدي المستشرقين حتى الآن ، وذلك فضلا عن الشعور الطبيعي بالاستخذاء حين يحس الشرقيون أنهم (موضوع بحث ودراسة)".

ومن هنا لا يكون غريبا أن يؤكد الدكتور محمود حمدي زقزوق في دراسته عن الاستشراق (٢٠) أن الجانب الهجومي التفنيدي الاستفزازي في إنتاج المستشرقين قد يكون بالنسبة لنا خيرا من جانب المدح تاكيدا للمثل المعروف (رب ضارة نافعة) ، فقد يكون هذا الاستفزاز حافزا لنا على الخروج من حالة الركود الفكري التي وصلنا إليها ، فننهض بعد طول رقاد وننطلق من جديد نبني أفكارنا ونعيد ترتيب ثقافتنا ، وبذلك نقبل التحدي ونستجيب له بانطلاقة إسلامية حضارية جديدة . ولعل هذا ينطبق عليه تفسير (توينبي) للحضارة بانها استجابة للتحدي بمعنى أنها رد معين يواجه به شعب من الشعوب تحديا معينا.

المصادر :

١. د.أحمد أبو زيد : الاستشراق والمستشرقون ، عالم الفكر ، المجلد ١٠ العدد٢ الكويت ١٩٧٩م

٢. إدوارد سعيد : الاستشراق ، المعرفة ، السلطة ، ترجمة كمال أبو ديب ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيرت ، ط٤ عام١٩٩٥م.

٣. هاشم صالح : الاستشراق بين دعاته ومعارضيه ، ص٢٣ . ٢٤ دار الساقي ، بيروت ٢٠٠٠م

٤. أنظر عبد المنعم الغيا : في نقد أطروحة إدوارد سعيد ، الرافد العدد ١٣٨ ، الشارقة ص١٦ ، فبراير ٢٠٠٩م

٥. انظر د. فؤاد المرعي : حياة العرب ، المستشرق كريمسكي ، الدوحة العدد١٣ نوفمبر ٢٠٠٨م

٦. السابق ص ١٢٣ .

٧ـ د. هند عبد الحليم محفوظ: الاستشراق الروسي..على ضفاف النيل، العربي العدد ٦٨٧ فبرايل ٢٠١٦

٨ـ مصطفى النيفر : الأمير في دولة القراصنة ، الاجتهاد ، العدد ٥١/٥٠ ، بيروت ربيع وصيف٢٠٠٠م.

٩ . انظر د.إسماعيل عمايرة : المستشرقون والمناهج اللغوية ، دار حزين ، عمان ، ط٢ ص١٣ ١٩٩٢م.

١٠ـ د. تركي المغيض : صورة العرب في مرآة الاستشراق الألماني ، الكويت العدد ٢٠٧ ، يوليو ٢٠٠٩م.

١١ـ على سلامة جبر : التاريخ الإسلامي بين القدامى والمحدثين ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، العربي العدد ٦٠٨ يوليو ٢٠٠٩م.

١٢. روي بارت : الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية ص ١٠ ترجمة د.مصطفى ماهر، القاهرة ١٩٦٧م

١٣. د.إدوارد سعيد : الاستشراق السابق ص١٩٠

١٤. – Guslave Dugat . Histoire des orientelises de L europe de XII au xix Sicle paris 1882. وانظر د.أحمد درويش : الاستشراق الفرنسي والأدب العربي ص ٢٤ . ٢٥ الهيئة المصرية العامة للكتاب عام١٩٩٧م

١٥ـ لمزيد من التفاصيل حول جهود المستشرقين ، انظر الدراسات العربية والإسلامية في أوربا ، د. ميشال حجي ، بيروت عام١٩٨١م ، ومالك بن نبي : انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث ، مجلة الفكر العربي العدد٣٢ ص ١٣١ ، بيروت ١٩٨٣م

١٦. د. يوسف مكي : علماء وعملاء ، الدوحة ، العدد ٦ ص ٢٤ إبريل ٢٠٠٨م

١٧. د.خالد البغدادي : الحلم والضوء ، الدوحة عدد٥ ص ١٢٠ ، مارس ٢٠٠٨

١٨. نقلا عن د. أحمد أبو زيد : الاستشراق والمستشرقين ، عالم الفكر مجلد١٠ العدد٢ ص ٢٦٤ وما بعدها ، الكويت ١٩٧٩م

١٩. السابق .

٢٠. د. محمود حمدي زقزوق : الاستشراق ص ١٥١ دار المنار ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٨٩م